داء الكراسي



مجموعة قصصية

داء الكراسي

يسرى الصعوب

داء الكراسي

تأليف: يسرى الصعوب

الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

عدد النسخ: ١٠٠٠

الإخراج الفني: فيصل حفيان

لوحة الغلاف: تركي محمود بك

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في :

مؤسسة رسلان علاء الدين

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـــ سورية

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ فاكس: ٥٦١٣٢٤١

ص.ب: جرمانا /٢٥٩/

ويظل للكلمة سحرها .... وللكتابة عشقها...

رغم رداءة الزمن وانحياز جمهرة القراء إلى اكتساب المعارف والاطلاع على مستجدات تكنولوجيا العصر، حيث غدا المهتمون بالثقافة المكتوبة يتندرون في جلساتهم بقولهم: لماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟ وهل ثمة من يقرأ هذه الأيام..؟؟

في زمن العزوف هذا عن القراءة والكتابة تطل علينا الكاتبة الشابة "يسرى الصعوب" بمجموعة قصصية أطلقت عليها اسم ((داء الكراسي)) وهي المجموعة الثانية بعد مجموعتها الأولى: "حديث ذو جنون" الصادرة عام ٢٠٠٢ م.

وكما لا يمكن فصل الكتابة عن التصدي لهموم الناس وتسليط الضوء على معاناة البشر في مجتمع بذاته، فإن "داء الكراسي" لا تشذ عن هذه المقولة في معظم نصوصها... لكنّ قصتها "المُقْعَد" تظل ذات نكهة مميّزة في المجموعة ذلك من وجهة نظري المتواضعة، فهي تطرحُ وبأسلوب حواري متقن، وضمن إسقاط فنّي بارع موضوعاً شمولياً يحمل إشارات سلبية على

منظومة الجماعات المتحضرة والمتوافقة على مبدأ العيش المشترك ضمن إطار من القوانين الناظمة لعلاقاتهم، فيما إذا سادت الانتقائية تطبيق هذه القوانين، فيحترمها الضعفاء... ويخترقها الأقوياء...!؟

يسرى كاتبة واعدة امتلكت ناصية اللغة، وهي تمسك عنان جواد جامح يتطلب منها كثيراً من الجهد والعناء والمثابرة... لعلها تجد إلى ترويضه سبيلاً...

بهجت الصعوب

الإصلاح

أطرقوا هاماتهم واجمين أمام رئيسهم الذي ساءه ما فعلوه، فنظر إليهم مقطّباً وجهه، ثم قال:

_ هاأنتم تعودون إلى السماء قبل إتمام ما كُلفتم به. إنّ هذا لفعل مشين حقاً. قُلْ لي أيها الملاك: ما الذي دعاكم إلى هذا الأمر؟

رفع الملاك رأسه وقال:

_ يا سيدي إن الحياة مع هؤلاء البشر تبعث على التقزّز.

_ هذه حجّة الخائر الذي لا عزم له.

_ لقد اتّسع الخرق على الراتق يا سيدي! فلا سبيل إلى إصلاح بشر تحكمهم شريعة العقل، حتى غدوا أمواتاً تعفّنت أرواحهم، إذ حجب العقلُ شمسَ الله عنهم، فقد رفعوا له صرحاً يعانق سحاب السماء وحدروا أرواحهم حتى تلامس أوكار الخلد. ولقد خابت مساعينا الحميدة لإحياء هؤلاء الموتى، فرجعنا كما ترى يا سيدي حاملين الخيبة.

ونظر الرئيس إلى ملاك آخر وصعّد النظر فيه ثم قال له:

ـ وأنت أيضاً هربت من حماقات البشر كما فعل أصحابك؟

ـ يؤسفني يا سيدي أن أقول لكم إنكم كلفتمونا بما يشقّ فعلُه، فلقد أرسلتمونا إلى هؤلاء الذين يحيون، وقد عقلت ألسنتَهم شريعةُ الخوف، فما ينفكّون يظهرون حباً تحته حقد وطاعة تحتها غضب ورؤوسهم منكّسة أبداً كالنعامة المذعورة. وأنتم تعلمون يا سيدي أن اللسان حاصد الرؤوس لهذا باءت جهودنا بالخيبة فشددنا الرحل عائدين.

وأبدى رئيس الملائكة انزعاجه وقال في نفسه:

ـ لقد اتسع الخرق على الراتق حقاً، ولكن لا بدّ من الحزم حتى لا يفلت الزمام من أيدينا. ثم رفع صوته قائلاً:

ـ أنتم أيها الملائكة لستم أهلاً لحمل عبء هذا العمل العظيم، لذلك ستكونون منذ الآن حرّاساً على أبواب الجحيم.

فامتعض الملائكة من هذا الحكم الجائر وقال أحدهم لرفيقه:

ـ ألا ترى أنه أجحف بنا وهو لم يجرّب العيش مع هؤلاء الحمقى؟

ـ اخفض صوتك فلا طاقة لنا على عصيان أوامر هؤلاء الرؤساء.

الخلاص

كان يتأهّب للذهاب إلى المعبد ليقيم طقوس الصلاة حين سأله طفله الصغير:

_ أبتِ هل يخلص الناس الذين لا يؤمنون بما نؤمن به؟

أجاب الكاهن متيقّناً:

_ يا بنيّ! الحقَّ أقول لك، إن من لا يؤمن بتعاليم براهما المقدس خالق الكون وبأننا نحن الكهنة البراهمة أسمى الناس وأعظمهم قدسية فلن يدرك يوماً خلاص نفسه.

وما زال الطفل يكبر حتى غدا شاباً يعشّش في عقله ذاك السؤال، ويؤرق مضجعه كلما رأى الناس يلِجون المعابد ملتمسين خلاصَ نفوسهم .

وفيما كان يجلس يوماً على ضفة النهر يتأمل الناس وهم يتطهرون بمائه المقدس، رأى راهباً جليلاً يخوض الماء ليروي ظمأه ثم يمضي في طريقه، فلحق به الشاب وقال له:

_ سيدي الراهب! هل لك أن تهديني إلى درب الخلاص؟

_أنصت إليّ يا بني! إن رُمْتَ الخلاص كان لزاماً عليك أن تتبع خطا بوذا المستنير معلِّم العقيدة القويمة الذي أُلهم الحكمة وأُسس الحياة الصالحة و لن يخلص من حاد عن تعاليمه المقدسة، فلا تنشد الحقيقة في غير أهلها.

وانصرف الشاب تعتريه الحيرة وهو يقول في نفسه:

_ أيها الإله براهما المقدس يا واهب الحكمة والسلام، أي سبيل ذاك الذي سيقود نفسي إليك؟

وبقي هذا السؤال يطوف في خلده حتى بارح يوماً منزله باحثاً عن ضالته عند أرباب العرفان ممن يملكون مفاتيح الحكمة، فأنصت إلى أحاديثهم قابساً لُبَّ المعرفة وسبل الحياة الصالحة التي تَهَبُ الإنسان الخلاص الأبدي .

ومرّت أيام مديدة بلغ في منتهاها سكون نفسه واستحوذت عليه الرغبة في أن يبشّر الناس بالحقيقة التي طالما تاقت إليها نفسه.

وذات يوم وقف في ساحة المدينة وأهاب بالناس كي ينصتوا إلى البشرى التي يحملها إليهم. فلما احتشدوا حوله رفع صوته قائلاً:

_ أيها الناس! لا شيء أجمل وأجدى من نُشدان الحقيقة. وهاأنا قد التمستُ الصلاح والحكمة من أفواه كهنتكم وحكمائكم، حتى بلغت حقَّ اليقين، فإذا استطعتم التغلب على ذواتكم، آمنتم بالحقيقة التي سأبشّركم بها، فمن كانت له أذنان للسمع فليسمع.

وجعل يتكلم والناس ينصتون إلى كلماته، وقد علت وجوهَهم أماراتُ العجب والدهشة، وكان كثير منهم يستخفّون به ويحسبونه جاهلاً لا يعي ما يقول، وآخرون يتعجبون من حكمته الفريدة.

وبعد أن فاض صدرُه بما فيه، قال لهم:

هو ذا الخالق العظيم ينتظركم في دروب شتّى، فامضوا إليه.

ثم مضى مبشّراً بالحقيقة العظمى والحكمة الجليلة لعله يجد أذناً مصغية وقلباً بصيراً.

نصرة الإخوان

كـان أحـد الرعـاة في طريقـه إلى المرعـى ليـسرّح مواشـيه في الكلأ حين هجم عليه كلب مسعور فرفع عقيرته يستصرخ أهل المروءة والنجدة من بني قومه.

وكـان نفـر مـنهم يـشهد هـذه الوقعـة، فوقفـوا نـاظرين إلى صاحبهم وهو بين براثن الكلب وقال أحدهم وهو يرفع سيفه:

_ تشجع يا أخي فإنا لناصروك، ولعمري إن نصرة الحق شرف.

وقال آخر:

_ اصبر يا أخي فمن صبر ظفر، واستعن بالله على كلب السوء هذا.

ورفع ثالث يديه إلى السماء وقال:

_ اللهم انصر عبدك المنكوب هذا وأعنه على بلواه، فما من معين سواك.

ومـرّ بـه واحـد مـن علْيـة القـوم ممتطيـاً جـواداً مطهمـاً، فكلح وجهُه حين رآه وغلت مراجل الغضب في صدره وقال:

ـ عليه لعنة اللّه أمازال يعضّ المقبل والمدبر؟ واللّه لأنفرنّ وجوه القوم للنظر في أمر هذا الكلب الشرس، فقد جلّ الخطب وعَظُم الأمر.

وجازت بهم امرأة تتوكّأ على عصاها، فأبصرت الراعي يتقلّب بين مخالب تجرّح وأنياب تعضّ، فأقبلت عجلى نحوه وهوت بالعصا على الكلب حتى خرّ صريعاً، وأنقذت الراعي من بين فكيه ودمه يسيل، ثم التفتت إلى هؤلاء النظّارة وصاحت بهم:

ـ قد ذلّ واللّه من نصرتموه وهان من غضبتم له، فنصرتكم ثرثرة وغضبكم جعجعة، فكفّوا ألسنتكم عن الهذر، فلا يضرّ السحابَ نبحُ الكلاب.

فنظر إليها ذلك المتطي حصانه بازدراء وقال:

ـ قطع اللّه لسانك أيتها الحيزبون، أَوَ تريدين منا أن نلوث أيدينا بكلب قذر مسعور من أجل راعٍ؟ اغربي عنّا قبل أن آمر بطردك من هذه الديار.

ومضت العجوز تقود ذاك المنكوب وهي تقول:

ـ لعنة اللّه على قومٍ نضب ماءُ وجوههم.

ـ لا تنسي الكلاب، عافاكِ اللّه.

المقامة الصلاحية

حدّثنا المواطن الصالح قال:

لما أقبل إليّ الحظُ السعيدْ بعد عمرٍ مديدْ، نعمت يا صحبي بمنصبٍ جديدْ عاشت به يدُ الأرزاء فتسلحت بهمة قعساء لا يعتريها كلالٌ أو عناء، وشمَّرت عن ساعد الجد وبذلت في مسعاي كل جهد لأضرب على كل يد تشمِّر الأردان لقبض المال، حتى قطعت أرومة الفساد والاحتيال، وسارت الأمور على أحسن حال.

لكني أغضبت أصحاب الجيوب وشعرت بوقوع الخطوب من وراء الغيوب.

فلما طال قطع الأرزاق عن أهل المكر والنفاق، جرت الدسائس على قدم وساق، كيلا يطول لي بقاء، فعَوَجُ النفوسِ داء يستعصي على كل دواء.

وحين تمَّ لهم طيب المراد رُميت إلى أقصى البلاد لأكون عبرة لكل العباد، من أصحاب الشرف والنزاهة، فخلفني رجل ذو سفاهة لا همّ له إلا الغنى والرفاهة، صنيعة مَنْ إذا رضوا رفعوا، وإذا ضربوا أوجعوا، وإذا زجروا أسمعوا.

وجررت أذيال الخيبة واليأس، وتجرّعت المذلة من كل كأس بعدما وقعت الفأسُ في الرأس. وكأني اقترفت من عظيم الآثام ما استوجب به الملام وتنكيس هامتي بين الأنام. ووالله إني لأستفّ التراب ولا أخضع لأحد على باب مهما عظُمَ المصاب.

فاستخلصت مما جرى عِبرة أورثتني في القلب حسرة وأسالت من عينيّ عَبرة:

من سار على السراط المستقيم فارقه السعدُ والنعيم، وصار في قعر الحياة مُقيم.

فلكل دهرٍ رجال ولكل مقامٍ مقال، نجلو به تقلُّبَ الأحوال:

وطنٌ علا قدرُ الوضيع به وغدا الشريفُ يحطُّه شرفُه

كالبحرِ يرسبُ فيه لؤلؤهُ سفلاً وتطفو فوقه جِيفُه

المُقعَد

كنت منهكاً يغصّ صدري بهموم كثيرة لا تكاد تنقضي حتى تبدأ الحياة بنسج هموم جديدة، فامتدّ بي السير حتى بلغت حديقة بلا أسوار وجلست قرب شجرة باسقة، فوقع ناظري عليه جالساً على كرسي متحرك رثّ الثياب، يده اليمنى يلفّها الجبس، وعلى عينيه عصابة سوداء. فدنا مني ثم قال:

_ أَمَا تحيّي صاحبك ورفيق دربك؟

دبّت في نفسي الحيرة والظنون وأنا أمعن النظر في وجهه كي أتعرف به، لكن ذاكرتي لم تُحِرْ جواباً، فما عرفت شخصاً غشيته صروف الدهر كما هي حال هذا الرجل.

_ لا بل أنت تعرفني فأنا صديقك الذي لا يغيث من استغاثه، فالعاهات قد ألمت بي من كل حدب وصوب، وإن كانت ذاكرتك لم تُعِنْك على معرفتي فسوف أذكِّرك بالنكبات التي صيّرتني مُقعداً خائر القوى .

ساورتني المخاوف وضاقت نفسي وقلت في سرّي:

ـ لا بدّ أنه رجل مجنون وقد رماني سوءُ طالعي بين يديه.

ـ أنا لست مجنوناً يا صاحبي ولكني أخشى عليك من الجنون. وسوف أُميط اللثام عن شخصيتي قبل أن ينفد صبرك وتنعتني بالجنون مرة أخرى.

ما زلت تذكر هؤلاء الذين دكّت الجرافات بيوتهم وتُركوا بلا مأوى يبيتون تحت سقف الوطن المثقوب لأن أصحاب الكراسي ضربوا بي عُرض الحائط، فقصموا ظهري وصرت لا حول لي ولا قوة.

ولم تنسَ بعدُ ذاك الشاب الذي صار من أهل العاهات بعد أن طوّحت به سيارة شاب مدلل من أبناء السادة ذوي الحصانة، وعندئذ كسروا يدي حتى لا أمسه وأمثالَه بسوء.

وليس ببعيد عهدك بتلك المرأة التي قرّب أجلَها طبيبٌ ثري عبّأ جيوبه من مشفاه السياحي، فشدّ القاضي عينيّ بعصابة سوداء ثم أعلن على الملأ أن لا رادّ لقضاء اللّه وقدره.

و لكن لا تبتئس يا صاحبي، فإن هذه العصابة تُرفع عن عينيّ حين يجرّد شرطي سيفي المثلوم من غمده ليسلطه على رقبة بائع

على الرصيف أو سائق رقيق الظهر، ثم يغمده بعد أن يكون قد دسّ في جيبه ما تيسّر له.

قل لي باللّه عليك أليس ما يقع لي مدعاة للضحك؟

وأطلق ضحكة عالية ملأ صداها أرجاء الحديقة في حين كانت الأفكار تترنّح في رأسي، ثم صاح بي قائلاً:

_ ألم تعرف بعدُ من أنا أيها المحامي الأ..

وقبل أن يتم قوله وينعتني بالحمق، صحوت من النوم وما زالت كلماته تضجّ في رأسي، ثم نظرت من النافذة فإذا الشمس تملأ السماء نوراً ودفئاً والغيوم الخريفية تسير نحوها ببطء، لتحجب نورها، فشعرت حينها بالخيبة والمرارة تجتاحان نفسي، فتنفّست الصعداء وأغمضت عينيّ فمرّ في مخيلتي وهو يقول:

_ يا لهذا المُقعد الذي تهرّأ وأصبح أذلّ من البساط وما زلتم تدعون الناس إلى احترامه.



باطلٌ وقَبْضُ الريح

باطلٌ وقَبْضُ الريح

كلُ ما تحت الشمسْ

إنْ لم تَذُبِ الروحُ وجداً

والكلماتُ تغدو هَمْسْ

وشوكُ الدنيا يمسي ورداً

إنْ لم نُلْفِ صدراً حاني

يذيبُ صقيعَ النفسْ

يحضنُ أيامَ العمرِ العاني

باطلٌ وقبضُ الريح

كلُ ما تحت الشمسْ

إنْ صار الهمُ يُبكينا

وتدثّرنا بضبابِ اليأسْ

فلا نلقى يداً تمسحُ دمعَ مآقينا

إن كان الغدُ يأتينا

بأحزانِ الأمسْ

فلا نلقى صوتاً يُعزِّينا

باطلٌ وقبضُ الريح

كلُ ما تحت الشمسْ

إنْ أفنى القدرُ الأحمقُ أحلامي

وأخفاها في ظلماتِ الرّمسْ

فتمسي في مهبِ الريحِ أيامي

إن أضنى القلبَ وجعُ الذكرى

والروحُ ماتَ فيها الأُنسْ

وغدت من الأحزانِ سكرى

باطلٌ وقبضُ الريح

كلُ ما تحت الشمس

شريعة الأرض

في رواق المحكمة الشامخة البنيان، التقى الشيطان ملاكاً يافعاً فبادره الشيطانُ إلى القول:

_ إنّ من دواعي سروري أن أرحّب بك في هذه المحكمة المتلبِّسة بلبوس الوقار و العظمة، و لكن يؤسفني أن أُسِرّ إليك بأنك لن ترى أجنحةً بيضاء على ظهور القضاة و لا هالة ذهبية فوق رؤوسهم .

_ لا تهزأ بي أيها الشيطان، فأنا أعلم أن البشر من أهل الأهواء، و لكن لا بد أن أجد بينهم صالحاً ينزّه نفسه عن القبائح .

_ ما تزال غرّاً جاهلاً لم تتمرس بعدُ بطبائع البشر، وحين تكبر يا صغيري، وتصبح ملاكاً خبيراً ذا حنكة وحصافة كما هي حالي، ستدرك أن أفكارك حمقاء أنبتَها عقلُك الصغير هذا.

_ أيها الماكر! إنك لتخدعني بأفانين قولك .

ابتسم الشيطان ابتسامة خبيثة وقال:

ـ إن كنـت تظـن أنـي قـد خـدعتك، فاصـحبني لـتعلم أنـي صدقتك القولَ.

وَلَجا قاعة المحكمة، فإذا عدد من القضاة يرأسهم قاضٍ بدت على محياه سيماء العدل والنزاهة، وقد اجتمعوا لينظروا في أمر أحد القادة، فقال كبير القضاة:

ـ أيها السادة! إننا نجتمع هنا لإنصاف المظلومين وللضرب على أيدي الظالمين الذين يعبثون بحياة البشر. ومن أجل هذا المقصد النبيل أمرنا بمثول هذا القائد أمام محكمتنا الموقّرة.

ثم نحى بصرَه إلى القائد وقال له:

ـ يزعم المدّعون من أبناء شعبك أنك قتلت أبناءهم وإخوتهم ظلماً وغدراً وأيادي جندك ما تزال تقطر من دمائهم. فما تقول في ما عُزي إليك؟

ـ أيها السادة الأفاضل! إن هؤلاء المدّعين يبتدعون الأكاذيب و يزعمون أن ملكنا طاغية، فيحرضون الغوغاء على عصيان سلطته. وليس بخافٍ عليكم أن هذه الدعوى باطلة وأن ملكنا راعٍ صالح والعدل أساس ملكه. ولم يكن لي مناص من مقارعتهم لتعلو راية

السلام فوق جماجم هؤلاء المردة. وإنني أُشهد اللّهَ على أني ما سللت سيف القوة من غمده إلا ليقطع رقاب هؤلاء العصاة.

وشرع القضاة يشاور بعضهم بعضاً، ويهزّون برؤوسهم، ثم قال كبير القضاة:

_ لا جُناح عليك أيها القائد، فنحن ندرك أنّ نُبْلَ الغاية يبرِّر قذارة الوسيلة، فاذهب بسلام ، فإنك أهل لكل إكرام.

وثار ثائرُ الملاك وشرع يصيح بهم محاولاً ثنيهم عن حكمهم الجائر، فاستوقفه الشيطان بهدوء قائلاً:

_ كُفَّ عن الصراخ يا صغيري.. كفَّ عن الصراخ، فلن تلِج كلماتُك الطيبة مسامعهم، فأنا قد حشوت آذانهم طيناً، وحفرتُ وصاياي على ألواح نفوسهم النَخِرة . فإذا ما أقبلت الأيام وغدوتَ ملاكاً حارساً لأحد هؤلاء، فإن مساعيك الخيِّرة ستبددها رياحُ الخيبة، فلا تنسَ عندئذٍ أن تطلب إقالتك من منصبك هذا.

فانصرف الملاك حزيناً قانطاً وهو يقول :

_ يا لك من ماكر خبيث أيها الشيطان اللعين !

- ارفع عقيرتك يا عزيزي، فإن سماع هذه الشتائم لا يضيرني.

الجراد

كان الملك يتفقّد أحوال الرعية مع وزيره وهما يرتديان ثياب العامة، فجاز بالسوق حيث رأى جمعاً من الفقراء يرتدون الأسمال ويتحلّقون حول أكوام القمامة باحثين عن بقايا الخضر والفواكه الذابلة المرمية هناك. فتقدم الملك إلى واحد منهم وقال له:

_ أيها الرجل! أَوَلَيست هذه أرض اللبن والعسل؟

_ بلى إنها والله كذلك.

_ إذاً لِمَ لا تنعمون بخيراتها الوافرة؟

_ أيها السيد! إن الجراد عندنا يحصد كل شيء فلا يُبقي ولا يَذَر.

_ أي جراد هذا؟ إن أرضكم خضراء غنّاء تفيض لبناً وعسلاً.

_ يبدو لي أنك غريب هاهنا ولا تعلم أن ولاتنا وحاشيتهم في طول البلاد وعرضها إنما هم كالجراد، يأكلون الأخضر واليابس، وإن مصيبتنا بهم لعظيمة أيها السيد.

وانصرف الفقير إلى شأنه، ومضى الملك إلى قصره وقد غاظه ما رآه من أمر رعيته، وقال لوزيره:

ـ لقد بلغ السكينُ العظمَ أيها الوزير، وإني لعازمٌ على أن أُجرّد هؤلاء الولاة اللصوص وأعوانهم من مناصبهم، فأَشِرْ عليّ بمن يصلح خلفاً لهم.

ـ يا مولاي! إن الغني كلما ازداد غنى يقول: هل مِنْ مزيد؟ فلنَدَعِ الفقراء يتقلدوا هذه المناصب لعلهم يشعرون بمآسي إخوانهم، فيكونون من نظيفي الكفّ، ويعفّون عن نهب أموال رعاياهم.

ـ حسناً أيها الوزير! فلنختبر هؤلاء الفقراء، فقد يكونون عند حسن ظننا بهم.

وجلس الفقراء ذوو النباهة على كراسي الولايات يسوسون شؤون الرعايا. وبعد مُضي مدة من الزمان على ولايتهم، خرج الملك ووزيره ليرى ما كان من أمر ولاته، فرأى أن الفقر قد ضرب أطنابه في البلاد، وازداد عديد الفقراء بعد أن لعق الولاة ومن لفَّ لفَّهم اللبنَ والعسل، ولم يبقَ إلا فتات الموائد يرمونه إلى أبناء رعيتهم ليسدوا به رمقهم، فأدرك الملك أنه كالمستجير من

الرمضاء بالنار، وعاد إلى قصره حانقاً تتملكه الحيرة وقال لوزيره:

_ قد أعيتني الحيلة أيها الوزير، فقل لي نشدتك اللّه، من أين لي بولاة لا يستحلّون أموال رعاياهم؟

_ أعان اللّه مولاي، لقد أنتنَ ماءُ بئركم وما عليكم إلا أن تستقوا من غيره، فولاتكم على اختلاف مشاربهم أَفسدُ من السوس والجراد.

_ إلامَ ترمي أيها الوزير؟

_ أنا أرى أن نجتلب الولاة من مملكة الشمال، فهم مشهود لهم بالنزاهة في سياسة البلاد. إنه لأمر مُخْزٍ ولكن هذا جلّ ما نستطيع فعله يا مولاي.

نظر الملك إلى وزيره متعجباً مما قاله، وفكّر بمشورته العجيبة ثم قال:

_ آه.. أيها الوزير الناصح! يركب الصعبَ من لا ذلول له. سنأمر بجلب الولاة وأعوانهم من مملكة الشمال لنقلدهم أمور مملكتنا قبل أن تُمسي خراباً يباباً.

دموع مريم

أحزانٌ ودموع في أورشليمْ

مريمُ تبكي بنيها

تواريهم في ثرى قلبها الكليمْ

وما مَن يعزِّيها

يهوذا سرق من قلوبهم نبضَ الحياةْ

فدمعُها لأجسادهم عطرُ النارَدِينْ

وآهاتُها الوجيعة لأرواحهم صلاةْ

صرختها تَدْوي وجعاً وأنينْ

أُمّتي.. أمّتي لمَ تركتِني؟

عدوّي طعن برمح الحزن قلبي

وعلى صليب الآلام سمّرني

فهل من وجعٍ كوجعي؟

كفُّي مريمُ عن النداء والنحيبْ

أوجاعُك لا تمسُّ قلوبَ الراقدينْ

فليس إلا صمتَ القبور مُجيبْ

فهلمّي ادفني الجراحَ في القلب الحزينْ

واحبسي الدمعَ في عينيكِ

وحيدة ستبقين بين حطام السنينْ

تحترق الآهاتُ على شفتيكِ

والكلماتُ تتنهّد على شفاه المعذّبينْ

أيتها المدينة المتعبةْ !

متى تلجين يومَ راحتكْ ؟

أيتها المدينة المنتحبةْ !

متى تدركين وقتَ خلاصك ؟

اللذة الخادعة

لما كان الملك في شرفة قصره المنيف ينظر إلى المارّة من أبناء رعيته، أحسّ أنه سجين قصره الباذخ، وضاقت نفسه، وتملكته الرغبة في أن يبارح قصره، ويعيش لحظاتٍ من الدَّعة والطمأنينة كهؤلاء الناس الذين لا تخامرهم مخاوفُ المُلْك وهمومه، فأمرَ بأن يُؤتى له بزيّ فلاح، فارتداه ومضى قاصداً سوق المدينة، فجال فيها هانئ البال مطمئناً.

وفيما هو يسير رأى شيخاً جالساً على الأرض وبين يديه كتاب يقرؤه، فاقترب الملك منه وقال:

ـ لِمَ أنت جالس هاهنا، أيها الشيخ؟

ـ أنا هنا لأَهَبَ الحكمة لمن ينشد الراحة والسعادة.

ـ وهل منحتك حكمتُك السعادةَ؟

ـ ليس بين الناس من حظي بالسعادة كما حظيت بها أنا.

ـ إذاً قلْ لي أيها الحكيم: من أهنأُ بعيشه الفلاح أم الملك؟

_ أنا على يقين من أنك _ وأنت الفلاح _ أوفرُ حظاً وسعادة من ملكنا الذي يحيا في ذاك القصر الرحيب.

_ وما برهانك على قولك هذا؟

_ إنّ الملك وإنْ كان حكيماً عادلاً _ لا يعدم طامعاً يودّ الجلوس على عرشه أو عدواً حاقداً يروم هلاكه، فما تلبث أن تفرّ منه الطمأنينة ويتلبّس بقلبه الخوفُ من خسران عرشه أو فقدان حياته، ومن ضيّع أمنه وسكون قلبه فارقته سعادته، فلذة المُلْك والسلطة إنما هي لذة خادعة تغرّ من يتمناها ويسعى إليها.

_ فلِمَ يقتتل الناسُ ويفني بعضهم بعضاً من أجل الظفر بها؟

_ إن الإنسان يجهل سرّ تعاسته الذي يتوارى في قلب رغباته ولذاته، فإن لم تلذّ نفسُه بما تشتهي خالجه الحزنُ، وإن بلغ مشتهاه خامره الخوفُ من فقدانه، وإن فقده تملكته الحسرةُ على ما فاته، فطبْ نفساً واهنأْ بعيشك أيها الفلاح الطيب.

_ بالصواب نطقتَ أيها الشيخ الحكيم، وسأحمد الله على أني لست ملكاً.

فقال الشيخ في سرّه: قد نسيتَ أن تخلع خاتمَ المُلْك من إصبعك أيها الملك.

وشكر الملكُ للحكيم حُسْنَ مشورته، وودّعه وقد أضمر في نفسه أمراً.

ومنذ ذلك اليوم لم يرجع الملك إلى قصره، وبقي سرّه قابعاً في صدر الحكيم.

رأس الحكمة

كـان أحـد الفلاسـفة ـ في طريقـه إلى مدينـة الحكمـة ، يرافقـه تلميذه. وبينما هما سائران يتجاذبان أطراف الحديث ، أبـصرا ثلاثةَ أجساد مُلقاة على الأرض ، فاعتراهما الحزنُ والخـوف لمـرأى الجثـث التي سكنها الموت ، وقال التلميذ :

ـ سيدي الحكيم! كيف يجرؤ قلبُ الإنسان على سَلْبِ الـروح التي أودعها اللّه في أبنائه؟

ـ يـا بـني إن القلـب إذا تمـرّد علـى شـريعة الحـب ، غـدا صـحراء مقفـرة لا تُنبـت رمالُهـا إلا أشـواكاً تـدمي مـن يلامـسها ، بَيـدَ أن في قلـب هـذه الـصحراء المهلكـة واحـة ظليلـة تجـري فيهـا ميـاه الحيـاة. والآن يا بـني هلـمّ كـي نـواري هـذه الأجساد في الـتراب الـذي جُبلـت منه.

وقـام الفيلـسوف وتلميـذه بـدفن القتلـى عنـد صـخرة كـبيرة ، ثـم أخـرج التلميـذُ قـصبة ودواة ليكـتب علـى الـصخرة هـذه الكلمـات التي أملاها عليه معلمُه :

أيهـا المـارّون مـن هنـا ، كلمـا ولجـت أرواحُكـم هياكـلَ السكون، تذكّروا أن الموتى الذين سجّاهم ترابُ هذه الأرض، قد هلكوا في صحارى قلوبكم .

وحين كتب آخر كلماته قال لمعلمه:

ـ إن كانت الأفكار المولودة من رحم العقل ترمي بصاحبها إلى لُجَّةِ الشقاء، فإن من الخير للبشرية أن نصوغ في الإنسان قلباً يخضع لفلسفة المحبة قبل أن نصوغ فيه عقلاً يخضع لمحبة الفلسفة.

ـ صدقتَ أيها التلميذ النجيب، وأستطيع القول إنّك قد بلغت رأس الحكمة.

ـ إذاً ليس ثمة داعٍ لنكمل مسيرنا.

ـ اليوم أدركتُ أنك قد غدوتَ فيلسوفاً حاذقاً.

لِمَ تركتني؟

حين تغضب بحارُ الحياةْ

وتمزّق الريحُ الهوجاء أشرعتي

وتعزُّ على الروح سبلُ النجاةْ

تصرخ أعماقي: لِمَ تركتني

تكتنفُ نفسي الظلماتْ

ولي في قلبك حبٌ أبدي؟

فتغرقني في خضمّ صمتكْ

وبين شوك اليأس والكَرْبِ

ينبتُ الشوقُ إلى لمسة يدكْ

تحنو على روحي المتعبِ

إلى نغم صوتكْ

يهمس في أعماق قلبي

إلى أُنْس صحبتكْ

يمحو وحشةَ الدربِ

فأسند رأسي بين ذراعيكْ

لأطوي بعد التيه شراعي

هذي أشواقي تناجي مقلتيكْ

فقلْ لي أيها النائي:

متى أحظى بحنوّ ناظريكْ ؟

وتظلّ سفينتي تشقُّ عُبابَ البحر العاتي

وتصعد شكوى الروح إليكْ:

إلهي، إلهي لِمَ تركتني؟

كعكة الميلاد

في قاعة الدير العتيق وأمام المغارة المملوءة دفئاً وحباً، جلس الصغيرُ ميخائيل عشية عيد الميلاد يتأمل طفلَ المغارة وأمَّه بعينين تفيضان براءة وفرحاً تتراقص فيه ظلالٌ شفيفة من الحزن ثم قال له:

_ أنا وأنت ولدنا في مثل هذا اليوم الشتوي البارد، وبعد وقت قصير سيحتفل الناس جميعاً بميلادك وأنت في حضن أمك الدافئ. أما أنا فسأحتفل بميلادي مع إخوتي الرهبان الطيبين، لأن أبي وأمي ماتا في الحرب منذ سنوات بعيدة. أنا أكره الحرب لأنها سرقت منّي أمي. لقد كانت جميلة أيضاً مثل أمك، هكذا قال لي صديقي الراهب، فكل الأمهات جميلات.

كم أنا مشتاق لرؤيتها لتضمّني إلى صدرها وتصنع لي كعكة الميلاد، فإخوتي الرهبان لا يحسنون صنعها مثل الأمهات.

أنت سعيد أليس كذلك؟ وأنا أيضاً سأكون سعيداً حين أمضي إلى أمي هناك في السماء لنتناول معاً كعكة الميلاد مع أصدقائي الملائكة الصغار.

وأحسَّ ميخائيل أنّ طفل المغارة يبتسم له، وأنّ بريق الحياة يشعّ من عينيه، فابتسم هو أيضاً ابتسامة مرحة، وأغمض مقلتيه النجلاوين حين قرعت كنيسة الدير أجراسها عند منتصف الليل.

واجتمع الرهبان في الكنيسة وأنوارُ الشموع تبدِّد ظلمات الليل البهيم ليستقبلوا المولود في مذود بيت لحم.

وبعد أن فرغ الرهبانُ من صلاتهم، ولج أحدُهم قاعةَ الدير، فرأى الطفل نائماً على الأرض أمام المغارة وعلى شفتيه ابتسامةُ فرحٍ وطمأنينة، فدنا منه وحمله بين ذراعيه وهو يقول:

_ أيها الملاك الصغير!

ثم قبّله على جبينه، فشعر ببرودة جسده الغضّ، فاضطرب قلبُه، وسرى حزنٌ عميق في نفسه وهو يضمه إلى صدره ويسير به نحو الكنيسة ودموع سخينة تسيل من مقلتيه وقال:

_ يا صغيري! كم كنت تتمنى أن تأكل كعكة الميلاد مع أمك، وهاأنت الآن بين ذراعيها، أليست أمك جميلة؟

بلى، إن كل الأمهات جميلات يا ملاكي الصغير.

الملوك والنّرفانا

في معبد يجثم فوق إحدى الروابي قصيّاً عن صخب العالم اللاهث وراء شهوات القلب، كان الملك جاثياً يصلي ويبتهل إلى خالق الحياة كي يمنحه سُؤل نفسه. وحين أتمّ صلاته جلس قبالة الكاهن وسأله:

_ قلْ لي أيها الكاهن الجليل: هل لي أن أبلغ النرفانا(١) بالصوم والصلاة؟

_ سيدي الملك! لا يدخلنّ إلى روعك أن طقوس الصلاة والصوم سوف تخلّص نفسك.

_ إذاً ما هو السبيل إلى النرفانا؟

_ خلاصك في عمق ذاتك، فإن كان بمقدورك أن تمضي في درب المحبة إلى المنتهى، لتستريح نفسك في السلام و السكينة، فاعلم عندئذٍ أنك بالغٌ مبتغاك.

---

(١) النرفانا: اتحاد الإنسان الصالح بالإله براهما (روح العالم).

_ قولك حقٌ أيها الكاهن، وسأسلك سبل وصاياك لعلي أبلغ مُشتهى نفسي.

_ معذرةً سيدي الملك، لكن أحداً من الملوك لم يستطع بلوغ النرفانا

ملأت الدهشةُ مقلتيه وهو ينظر إلى الكاهن وقال له:

_ ولِمَ أيها الكاهن؟

_ لأن المحبة والسيف لا يجتمعان في شخص الملك، فكلاهما يقاوم الآخر، فالمحبة تأبى أن تمتشق سيفاً، والسيف يأبى أن يخضع لناموس المحبة، و من رام المُلك فما هو بقادر على المُضي في ذاك الدرب الضيّق .

_ أنت تشير عليّ بأن أتخلى عن عرشي؟!

_ أجل سيدي الملك، فالسعادة العظمى التي تتوق إليها الروح هناك فوق هامة جبلٍ صعب المرتقى، وليس باستطاعتك أن تصل إليها وأنت تتوكأ على عصا السياسة.

سمع الملك كلمات الكاهن فخفض رأسه وأرخى عينيه واجماً، ثم نهض خارجاً من المعبد حزين النفس، ومضى تحفُّ به سيوفُ جنده.

صلاة استسقاء

كانت خيوط الشمس الذهبية تتدلّى فوق سماء القرية في يوم شتوي سَجَت فيه الرياحُ، ولملمت السحبُ أذيالَها، والكاهن يغذُّ في السير مرتدياً معطفه الطويل ويحمل بيده مظلة.

أما القرويون فكانوا ينظرون إليه وقد أخذهم العجبُ منه، فارتفع صوت أحدهم قائلاً له:

_ ما بالك يا أبانا تحمل مظلتك وترتدي معطفك والشمس تلفح وجوهنا؟

فأجاب الكاهن:

_ أَمَا تعلمون أن حبات المطر ستعانق اليوم هذه الأرض العطشى؟

وتهامس الناس فيما بينهم قائلين: ألعلّ الشيخوخة قد نالت من فطنة راعينا؟

ومضى الكاهن في طريقه لا يعبأ بأقاويل رعيته حتى ولج الكنيسة، فرآه جالساً على المقعد الأخير غارقاً في تأملاته غير

مبالٍ بهؤلاء الناس الذين ينعتونه بالجنون. وارتدى الكاهن حلّة القداس، فشرعت الصلواتُ ترتفع مختلطة برائحة البخور المحترق تسأل اللّهَ الغيثَ العميم.

ولم تزل أنوار الشموع تتلألأ والدخان يتصاعد من المباخر حتى ختم الكاهن صلاته ومنح المصلين بركته، ثم خرج مسرعاً ليعود أحدَ المرضى المحتضرين، في حين كانت السحائب الدُّكْن قد غطت وجه السماء، وعلا قصيف الرعود يملأ الأفق، وبدأت عيونُ السماء تنهلّ لتنبثق الحياة من رحم الأرض، والمصلّون ينظرون إلى هبة السماء وقد اعتراهم العجبُ، وتلألأت وجوههم فرحاً، وأخذوا يسبّحون اللّه شاكرين له رحمته وتحنّنه عليهم، حينئذ صعد ذلك المجنون درجات الهيكل وصاح بالناس قائلاً:

_ أَوَ تظنون أن صلواتكم التي تلوكونها بين شفاهكم قد فتحت لكم أبواب السماء؟

إنكم جهلاء إذ تحسبون أن تسابيحكم قد بلغت عرش اللّه.

قال كلماته تلك، وخرج يحمل مظلته تاركاً الصمتَ وراءه يبسط ظلاله فوق رؤوس المصلين.

داء الكراسي

أقبل الملك يجرّ رجليه متمهلاً وهو يتوكأ على خادميه حتى أجلساه على العرش وقد كَلَّ بصرُه وثقل سمعُه.

وكان الوزير ماثلاً بين يديه فدنا منه وصاح:

_ يا مولاي! إنّ أعباء المُلْك قد ثقلت عليك، فَلِمَ لا تستريح وتلقي أوزارك على عاتق ابنك وليّ العهد؟

وثار ثائرُ الملك وهو يجهد في النظر إلى وزيره وقال له:

_ أتراني استوزرت رجلاً أخرق؟ أوَ تطلب مني أن أُجلس على عرشي غراً جاهلاً لا يعي من أمور المُلْك شيئاً؟

_ معذرةً يا مولاي، لكنّ وليّ عهدكم ناهز الستين وهو مضطلع بأمور الحكم، حاذق في سياسة الرعية.

_ صَهْ، أيها الوزير، ولا تحدّثني بمثل هذا وإلا أقلتك من منصبك، فأنا ما زلت قادراً على القيام بأعباء الحكم، والرعية أحوج ما تكون إلى حصافتي ورجاحة عقلي.

وأخذ يذكّر الوزيرَ بفعاله الكريمة ومآثره العظيمة، والوزير يهزّ برأسه ويقول في نفسه:

_ والذي نفسي بيده لقد دبّ الخرفُ في رأسك وصرتَ أحمق من نعامة.

وما زال الملك يطنب في الحديث عن مفاخره حتى نزل به قضاء الله، فانقطعت أنفاسه وخرجت روحه من جسده.

وحدّق الوزيرُ إليه وهو هامد على عرشه وقال:

_ رحمك الله أيها الملك، لا شيء إلا الموت ينزلك عن هذا الكرسي.

واستدعى الوزيرُ أولاد الملك على عجل، فلما ولجوا قاعة الحكم أظهروا الجزع ودنوا من والدهم يترحمون عليه.

فقال الوزير مخاطباً ولي العهد:

_ لقد فجعنا الدهرُ بفقده، ولكنكم يا مولاي خَلَفُ صدقٍ عن أبيكم، رحمه الله.

ـ رحمه الله، لقد أفنى عمره وهو يسوس البلاد حتى صار شيخاً هرماً، وقد آن له أن يستريح من هموم الحكم.

ثم قال مخاطباً إخوته:

ـ هلمّوا أنزلوا الملك عن العرش، وهيّئوه للقاء ربه، غفر الله له ما تقدّم وما تأخر من ذنوبه.

وأمسك أولاده به وهمّوا بإنزاله عن العرش، ولكن يديه كانتا تمسكان الكرسي بقوة، فلم يستطيعوا أن يزحزحوه عن كرسيه، فقال وليّ العهد:

ـ أيها الوزير! إن يديّ الملك تتشبثان بالكرسي، فكيف السبيل إلى إنزاله؟

ـ أرى يا مولاي أن نستدعي طبيب القصر لعله يسعفنا برأيه.

فأرسل وليُّ العهد في طلب الطبيب الذي أتى عَجِلاً يترحّم على فقيد الأمة التي فُجعت بموته، وبدأ يعاين الملكَ ويجسُّ يديه المتيبّستين، ثم قال لأولاده:

_ إن الملك _ رحمه اللّه _ مصاب بداء الكراسي، وهذا الداء يصيب من يجلس على كرسي المُلْك، فيمسك به ولا يبرحه، وإن وافته المنية.

فقال وليّ العهد:

_ فبِمَ تشير علينا أيها الطبيب؟

_ ادفنوه مع كرسيه، فهذا مدعاة لراحة نفسه.

زينة العيد

كانت زينة العيد تلتمع في طرقات المدينة في يوم بهيج تذرو السماءُ فيه ثلوجها، ليبسم وجهُ الطبيعة الكئيب بسمة بيضاء نقية، وطفلٌ صغير يجلس على قارعة الطريق تحت مظلة متجر كبير، وهو يضمّ رجليه إلى صدره بيدين صغيرتين أيبستهما لسعاتُ البرد، والناس يمرّون به مُشيحين أنظارهم عن ثيابه الرّثة، ووجهه الشاحب الذي مسحه الشقاءُ بكفّه.

أما هو فكان يرنو بعينين مفعمتين بمرارة الحياة إلى مسرّات العيد وهي تزهو على وجوه الأطفال الذين يرتدون حللهم القشيبة، فتداعب نفسَه الحزينة أمنياتٌ طفولية جميلة وأحلامٌ مرحة تسمو به إلى عالم مفعم بالدفء والبهجة حيث لا جوع ولا برد، فيهنأ به لحظات قليلة قبل أن يُرجعه إلى قارعة الطريق صوتُ رجلٍ عجوز يقول له:

ـ أيها الصغير! لِمَ تجلس هاهنا؟

التفت الطفلُ بوجهه الوادع صوب الرجل وقال بصوت مرتعش:

ـ ليس في بيتنا عيد يا جدي.

خرقـت هـذه الـكلمـاتُ قلـبَ العجـوز حـين ولجـت مـسامعَه، فانحنى وأنهض الطفل وعلى شفتيه ابتسامة حانية وقال له:

ـ لا تحـزن يـا صـغيري، لا تحـزن، فـإنّ العيـد سـيزور بيـتكم حاملاً بين يديه الكثير من الفرح.

ـ نحن فقراء يا جدي، والعيد لا يزور الفقراء.

ـ أَعِدك يا صغيري بأن أجيء بالعيد إليكم، ومعه الهدايا التي تسرّكم.

وخلع العجوز معطفه ولفّ به الطفل، وحمله بين ذراعيه، وسار به، والألم يعتصر روحه وهو يرى شقاء الإنسانية بادياً على وجه طفل حزين .

ولم يَطُل مسيرُه حتى وصل إلى بيته الصغير، فأجلس الطفلَ على أريكة قرب المدفأة، ففتح عينيه الذابلتين لينظر إلى العجوز، ويقول له:

ـ أنا جائع يا جدي.

ـ تدفّأ يا صغيري، وسأحضر لك ما تحبّ من الطعام.

وجاء العجوز يحمل بين يديه طبقاً من الطعام، فرأى الطفل قد أغمض مقلتيه وأسلم جسده إلى نوم عميق، فقال:

_ لقد سرى الدفءُ في جسده، فغلبه النوم، نَمِ الآن وحين تستيقظ ستجد ما يفرحك.

وخرج العجوز من منزله قاصداً متجراً صغيراً، وابتاع للطفل ثياباً جميلة تَهَبُ قلبَه الكئيب الفرحَ الذي كان يراه على وجوه الأطفال.

وحين عاد، وجد الطفلَ ما يزال نائماً، فدنا منه، وأخذ يمسح شعره، ويحدّثه:

_ استيقظْ يا صغيري، لقد أعددت لك الطعام والحلوى التي تحبها، هيّا يا صغيري استيقظْ، فهدايا العيد تنتظرك.

ولم يستجب الطفلُ لنداء كلماته العذبة، وبقيت عيناه مغمضتين، فأمسك العجوز يديه، ووضع رأسه على صدره الساكن، فأدرك أن الموت كان أعجل منه فرقد الطفلُ مغمضاً قلبه على ما فيه من الحزن والحسرة، فشعر بأن نفسه تنضح بالسواد والألم أمام جسد صغير بلا حياة، وجثا قبالته يتأمّل الوجه

الملائكي الذي عكّرت جماله سنواتٌ من الحرمان والجوع، وقد اغرورقت مقلتاه بالدموع ثم قال بصوت متهدّج:

_ آه.. ما أعجلَ رحيلك يا صغيري، ما أعجلَ رحيلك!

ووضع رأسه على صدر الطفل وأخذ يبكي بمرارة.

المنحوس

كلما قرع الدائنون باب أبي سعيد ليطالبوه بردّ أموالهم، اعتذر من ضيق ذات يده، ووعدهم بأن يوفّيهم حقوقهم حين تنقضي أيامُ العسرِ، ويُشهد اللّهَ على وعوده.

ولم يزل أبو سعيد يَعِدُ ولا يفي حتى ركبت الهمومُ ظهره، وهو يرى الأيام المشؤومة تقرع رأسه بعصاها، فيولّي الرزقُ هارباً من بين يديه، فملأ القنوطُ نفسَه، ومضى إلى ابن عمه يطلب مشورته، ويشكو له حاله:

_ واللّه إني لأستحي من هؤلاء الدائنين كلما رددتهم خائبين.

_ يا بن عمي! إن النحس يرافق الفقير حتى يواريه الترابُ، فإن شئت أن تعطي الدائنين أموالهم، وتقطع ألسنتهم، فما عليك إلا أن تبيع رقعة من أرضك.

_ لكنها أرض صغيرة، فمن الذي يرضى أن يشتري بعضها؟

_ اذهب إلى جارك الغنيّ أبي عبد اللّه، فإنّ أرضك مجاورةٌ أرضَه واعرض عليه الأمر لعله يتعطّف عليك فيشتريها ويفرّج الغمّ عنك.

ومضى أبو سعيد إلى جاره أبي عبد اللّه، وأخبره بسوء أحواله، ثم عرض عليه شراء نصف أرضه قائلاً:

ـ وأنت تعلم أن أرضي تجاور أرضك، فإن اشتريتَ نصفها وزّعتُ ثمنه على الدائنين الذين يلجّون في طلب نقودهم.

ـ يا أبا سعيد! إن لديّ من الأراضي الكثير، فما حاجتي إلى هذه الرقعة الصغيرة؟

ـ زادك اللّه خيراً يا أبا عبد اللّه، لكنك إن اشتريتها فرّجت عني غمّتي، فرّج اللّه عنك كل غمّ، وأبعد عنك كل مكروه.

وشرع يدعو اللّه ويقول في نفسه:

ـ اللهم عطِّف قلبه عليّ، اللهم لا تُخيّب رجاي.

ـ حسناً يا أبا سعيد، لن أخيِّب مسعاك، وسأشتري تلك الأرض رأفة بحالك.

ـ بارك اللّه فيك يا أبا عبد اللّه، لن أنسى معروفك ما حييت.

واشترى أبو عبد اللّه الأرض الصغيرة، وضمّها إلى أملاكه الواسعة.

وذات يوم وبينما كان يتجوّل فيها راكباً حصانه المحجّل، والأُجراء يحرثونها، اصطدمت سكة المحراث بجرّة دفينة تحت التراب، فأخرجوها وأسرعوا بها إلى مالك الأرض الجديد، ولما فتحها تلألأت فيها نقودٌ ذهبية ملأت قلبه مسرةً وزادته غنىً على غنى، فأجزل الشكرَ للّه الذي وَسَعَ عليه رزقه:

_ يا له من حظ سعيد ويوم مبارك! اللهم لك الحمد والشكر، يا من غمرتنا بإنعاماتك، وأجريت علينا هذا الرزق العميم.

وعلم أبو سعيد بخبر الجرّة، فاغتمّ كثيراً، وقد أسف على فعلته وقال:

_ لعنة اللّه عليّ وعلى هذا الحظ العاثر الذي يُوقعني في شرّ الحاجة والفقر.. ملعونٌ ذلك اليوم الذي بعت فيه الأرض، واللّه إني رجل منحوس، لو اتّجرت بالأكفان لامتَنَعَ عزرائيلُ عن قبْض الأرواح.

رحمة مؤجّلة

شمّر عزرائيلُ أردانه، وقبض روحَ أبي سليم حين كان يغرف الشتائمَ بلسانه السليط ويُهيلها على جاره الذي كان يتشاجر معه، فوضعت المشاجرةُ أوزارَها بعد أن سقط على الأرض هامداً وعلا صياحُ النسوة من حوله.

وذاعَ خَبَرُ موته في القرية كلها كالنار في الهشيم، وشرع أهله وأقاربه يتواردون إلى منزله حيث كانت زوجته تندبه وتلطم وجهها، وبنات أبي سليم وشقيقاته يؤازرنها في العويل واللطم وجاراتها حولها يتحسَّرن عليها، ويرثين لحالها وهن يَرينَها تولوِل وتبكي محرَّقة الكبد، ولكن زمام ألسنتهن لا بدّ أن ينفلت:

_ من يسمع بكاها يظنّ أن الميت من وجهاء القرية.

_ إن اللّه عجّل في رحيله ليريح الناسَ من بلاياه.

_ كان سليطاً، لم يمت إلا ولسانه يشتم ويلعن.

وبعد أن هُيّئ للقاء ربه، وتُليت الصلواتُ لراحة نفسه، شيّعه أهله وأقاربه ونفر من أهل القرية، وساروا بنعشه إلى جبّانة القرية،

فأسكنوه حفرة القبر وما شُقّت عليه الجيوب، وما قُرعت لأجله الصدور.

ولما رجع المشيّعون من مثوى الأموات، مضى أكبر أبنائه إلى أمه وهمس إليها بقوله:

ـ أمي! إني لم أسمع أحداً من أهل القرية يترحّم على أبي أو يذكره بخير، كأنهم قد استبشروا بموته.

ـ رحمه اللّه، لقد قطع ألسنة الناس عن الترحّم عليه بسيئ أفعاله وقبيح أقواله، فكان يسرق غلات الفلاحين من البيادر في عتمة الليل، ويفتري الكذبَ على الناس، فمن الذي سيرحمه يا بني؟ لعل اللّه يغفر له ذنوبه، ويتغمّده بوافر رحمته.

ونظر الابن إلى صورة والده وقال في نفسه:

ـ قريبٌ ذلك اليوم الذي سيترحّمون فيه عليك، ويدعون لأيامك بالسّقيا.

ولم يكد أهل القرية يستريحون من قبائح الأب حتى ابتلاهم اللّه برذائل الابن الذي كان قُرّة عين أبيه، فعندما انفضّت مجالسُ

العزاء، وولّت أيامُ البلاء، أخذ الابن يطوف ببيوت القرية في غسق الليل، ويختلس النظر إلى النساء من النوافذ والكوّات.

وكلما وقعت عليه أبصارُ القرويين وهو يحملق إلى النسوة، أوسعوه شتماً وذمّاً، ورفعوا أيديهم قائلين:

_ رحم اللّه أباك، لم يكن ليفعل هذا.

المطرقة والسّندان

أرخى الليلُ سدوله، فاستوى السلطان على عرشه، ورجال الحاشية بين يديه ينكّسون رؤوسهم لجلالته، ويخشعون بأبصارهم أمام عظمته، وقد جمعهم مجلسُ أنسٍ طاب فيه السمر، والسقاة يطوفون بالخمرة على الندامى، وهم يتسامرون ويتملّقون السلطان، فيطنبون في وصف جميل خصاله وكريم فعاله.

وفيما هم على هذه الحال، التفت السلطان إلى شاعره وقد انتشى من خمرة المديح وقال:

_ وما تقول فينا أيها الشاعر؟

وقف الشاعر أمامه يترنّح بعد أن دبّت الخمرةُ إلى رأسه وقال:

_ سأقول فيك ما لم يَقُله شاعر قبلي أيها السلطان المعظّم.

ثم أنشد:

غشومٌ ظلومٌ قبّح اللّهُ وجهكَ   فما الناسُ إلا موطئٌ لنعالكَ

امتقع وجهُ السلطان حين سمع هَجْوه، وقبل أن يفتح الشاعر فاه لينشد بيتاً أخر، أومأ إلى الحراس، وهو يصرف بأسنانه وقال:

_ أيها الحراس! خذوه إلى داره، فقد لعبت برأسه الخمرة، وسنراه غداً حين يعود إليه رشده.

فمشى الشاعر يتهادى بين حارسين، ونظر السلطان إلى ندمائه، وقد لجم غضبَه عن الثوران وقال:

_ لعنة اللّه على هذه الخمرة، لقد أعمت بصيرته، وأزلّت لسانه عن الحقّ، فتفوّه بهذه الأباطيل. أيها السقاة! ارفعوا هذه الخمرة، فإنها أدارت رؤوسَ القوم.

فانفضّ مجلسُ السمّار، ومضوا وفي رؤوسهم يترنّح السؤالُ عن مصير ذلك المنكوب الذي جلب إلى نفسه غضب السلطان دون أن يدري.

فلما خلا السلطان بوزيره، ضرب كرسي العرش بجُمع كفّه، وقال:

_ إن كنتَ سنداناً فاصبر، وإن كنت مطرقة فأوجِع، مُرْ صاحب الشرطة بأن يسوق ذلك السكّير إلى غيهب السجن وليبقَ فيه إلى يوم الحشر، لعلي أتشفّى مما بي من الغيظ والنقمة.

وقبل أن يفيق الشاعر من سكره، كان يقبع في السجن، وضربات السياط تُلهب جسده، وأنياب الأصفاد تعضّه. ولما استيقظ عقلُه من رقدته، علم بما تفوّه به لسانُه فبدأت الهموم تقرع أمَّ رأسه، وتنهّد قائلاً:

_ قاتل الله الخمرة.. قاتل الله الخمرة.. اللهم أَجِرْنا مما هو أعظم.

وكانت أبواب السماء حينئذٍ موصدة، فلم تُجِرْه من الغضب الآتي، فهاهو السلطان ينقر رأسه بمطرقته الموجعة، فيجعل أبناءه نزلاء في سجونه العامرة، ليقصم بهذه البلية ظهره، فما كان من الشاعر الفصيح إلا أن تجلّد ورفع رأسه ليقول:

_ اللهم أَجِرْنا مما هو أعظم.

وحين بلغت مقالتُه مسامعَ السلطان امتعض منه وصاح:

_ أَمَا يزال ذاك المعتوه يدعو ربه ويستجير به؟ أيها الوزير! ابعث السياف إليه لنمتحن صبره وتجلّده، فشَرُّ أيامِ الديك يوم تُغسل رجلاه.

وجاءه السياف يمتشق سيفه الرهيف ليُعلمه بدنو أجله قائلاً:

ـ رُبَّ رأسٍ حصيدُ لسان أيها الشاعر.

فلم يبالِ بما سمع، بل دعا إلى اللّه قائلاً:

ـ اللهم أجرنا مما هو أعظم.

ونظر السياف إليه مستغرباً وقال:

ـ وهل ثمة شيء أعظم من الموت أيها المأفون؟

ـ إذا ابتليت بمثل مصيبتي، فانتظر ما هو أعظم من الموت.

ـ لا بدّ أن عقلك قد أودت به سياطُ الجلاد، وبما أنك راحل إلى جوار ربك فلن تحتاج إليه.

وفوق بساط من الجلد جلس الشاعر حانياً رأسه أمام السيّاف الذي رفع سيفه ليهوي به على رقبته، وقبل أن يبلغ السيفُ بغيتَه ويحصد رأسه، جاء أحد الحراس مسرعاً وهو يصيح:

ـ مهلاً أيها السياف!

ـ هل عفا السلطان عن هذا الشقيّ؟

ـ لا بل إن السلطان رأى أن يموت على الخازوق.

البدويّ والكنز

تحت رمال الصحراء التي تذروها الرياحُ وتلفحها شمسُ الهاجرة بألسنتها اللاذعة، عثر أحد البدو ممن أَلمَّ بهم داءُ الفقر المدقع على جرة طافحة بنقود ذهبية تلتمع أمام ناظريه، وهو يحدّق إليها، ويلمسها بيديه المشققتين غير مصدِّق ما تراه عيناه، حتى غُشي عليه من فرط السرور.

وحين استفاق من غشيته، وضع الجرة في عباءته، ومضى مسرعاً حتى وصل إلى خيمته وقال لزوجته:

_ قد أقبل إلينا النعيمُ من حيث لا نحتسب وذهب أمسُ بما فيه من الفقر والعوز.

وأفرغ الجرة بين يديّ زوجته، وحين رأت الذهب أصابها الذهولُ وهي تحملق إليه ثم صاحت:

_ من أين أتيت بهذا الذهب؟

_ وجدته مدفوناً تحت الرمل حين كنت أرعى العنزات.

ـ لا أصدّق ما تراه عيناي، الذهب بين يديَّ اللتين لم تمسكا إلا أبعار عنزاتنا؟

ـ إنْ تحنّنَ اللّه على عبده الصالح انتشله من حفرة الفقر.

ـ أخشى أننا نحلم، وعمّا قليل نستيقظ من رقدتنا، وقد رجعنا إلى فقرنا وشقائنا.

فقام البدوي وجاء بطاسة، ورشق وجهها بالماء قائلاً:

ـ كفاكِ ثرثرة يا امرأة فنحن لسنا نياماً.

ولما صار البدوي من أهل الثراء، عافت نفسُه الصحراء وما فيها من عيش خشن، فغدا إلى المدينة مصطحباً زوجته، وترك وراءه جمله وعنزاته العجاف وخباءه الرّث، ليطيب له المقام في قصر رحيب تميس فيه الحسانُ من ذوات الشعر الأشقر، وطفق يعبّ من كؤوس المسرات، ويغرف من أطايب الطعام في مجالس سمر وغناء، يؤانسه فيها ندمان ظرفاء ومغنية هيفاء، حتى يرفع الليلُ سدوله.

أمّا زوجته التي كانت تنزل جناح الحريم، فصارت تتحيّن ساعةَ صحوه لتردّه عن ضلاله، فتكدِّر صفوَه حين كانت تقرِّعه قائلة:

ـ لقد ركبت مطيّة الجهل والسَّفه، فترجّل قبل أن تقودك إلى خيمتك وجملك الأعور .

وكان يقول لها :

ـ قد أقبلت الدنيا علينا ، فهل ندبر عنها أيتها البلهاء؟

وما زالا على هذه الحال، حتى جاء اليومُ الذي نفد فيه صبرُه، وسئم من مواعظها فأوعدها قائلاً :

ـ واللّه إن لم تكفّي لسانك عن ذمِّي لأردَّنَّك إلى أهلك طالقاً.

ـ سيأتي يومٌ ترجع فيه إلى أهلك راعياً تسترعي الناسَ مواشيَهم.

ـ اغربي عني يا وجه الشؤم، فإن رمال الصحراء وعجاجها أولى بك.

وأدركت زوجته أن النصح لا يحيك فيه، فصرّت حوائجها في صرّة، ومضت عائدة إلى ديارها تاركة زوجها غارقاً في مسراته بين صحو وسكر إلى أن استفاق، وقد ذهب ماله وانفضّ عنه أصحابه، فترك القصر متحسّراً على النعيم الزائل.

ومضى يبحث عن مكان يقيم فيه حتى قادته رجلاه إلى خانٍ صغير نزل فيه. وفي كل يوم يخرج من الخان باحثاً عن عمل يُكسبه قوت يومه، ثم يعود في آخر النهار خائباً خائر القوى، فبدأ يقتِّر على نفسه في النفقة حتى ضاقت به سُبلُ العيش في المدينة، فقصد سوق الإبل، واشترى بما بقي في كيسه من المال بعيراً أجرب حمله إلى دياره كاسف البال، آسفاً على العيش الرغيد الذي ولّى إلى غير رجعة.

وحين قارب الوصولَ قال:

_ الويل لي من لسانها السليط، ستتخزني بكلماتها حين تراني على هذه الحال.

ورأته زوجته قادماً منكّس الرأس، فخرجت من خبائها وقالت له:

_ لقد نصحتك أيها الأبله، فلم تُصغِ ولم تَعِ، وهاأنت قد عدت إلى أصلك، فالمال الذي تجلبه الرياحُ تأخذه الزوابعُ.

المتخم

جلس الثري مشمّراً عن يديه اللتين ترتجفان، وبدأ يعدّ النقود التي جاء بها ناظرُ الأرض، وهو يضيِّق جفنيه، ويحدِّد النظرَ إلى نقوده، والسرور والاطمئنان باديان على وجهه المغضّن.

وحين فرغ من العدّ هزّ رأسه مبتسماً وشرع يعدّ النقود مرة أخرى، فلما أتمّ العدّ رفع رأسه مخاطباً الناظر:

_ حين يُجتنى الثمرُ في الموسم القادم، سيكون لديّ من المال ما يكفي لشراء أرضٍ خصيبة كثيرة الغلال ستجعلني أثرى الملاّك في هذه الكورة.

_ زادك اللّه نعيماً يا سيدي، فإنك أهلٌ له.

ثم قال الناظر في نفسه:

_ قد أتخمك المالُ وما زلت تسعى له جاهداً، كما يسعى الفقير للرغيف، ولن يُقعدك عن السعي إلا مُفرّقُ الجماعات وهادمُ الملذات.

ـ وحين أبلغ ما أطمح إليه، سأستريح من عناء العمل، وأمتّع نفسي بما أملك من متاع الدنيا.

ـ أنجح اللّهُ طلبتك، وأطال عمرك يا سيدي.

وقام الثري حاملاً نقوده، واتجه صوب الخزينة يجرّ ذيله، وقبل أن يصل إليها وافاه قضاءُ اللّه مُتعجّلاً، فخرّ لوجهه ميتاً، فأسرع الناظر إليه وانحنى فوقه يناديه، وأمسك يده ثم قال:

ـ لا حول ولا قوة إلا باللّه، رحمك اللّه يا سيدي، لقد زارتك أمُّ قشعم قبل أن تبلغ المراد، وتصبح كبير الملاّك في هذه الكورة.

الدجاج والسياج

حين كان الوالي في مجلس الحكم، يدبّر أمور رعيته مع مستشاره الأريب، وفد عليه رسولُ السلطان، وأبلغه أمره بإرسال ما يتوجب عليه من المال إلى خزينة جلالته، فقال له الوالي:

_ أوامر مولانا مطاعة، بعد أن تستريح من وعثاء السفر، سنأتيك بالمال الذي طلبه مولانا السلطان. أيها المستشار! امضِ إلى الخازن وتدبّر معه أمرَ المالِ لمولانا، ولا تبطئ.

ولم تطل غيبة المستشار حتى عاد يسرع الخطو، ومثُل بين يدي الوالي كالح الوجه، فبادر الوالي إلى القول:

_ لِمَ عدت فارغ اليدين؟ أين المال الذي أرسلتك في طلبه؟

_ يا مولاي! إن خزينة الولاية لم يبقَ فيها ما يكفي لنرسله إلى السلطان.

نهض الوالي، وقد أثار خبرُ المستشار حنقه، وصاح:

_ ومن ذا الذي تجرّأ على سرقة أموال هذه الولاية، وأنا على رأسها؟

ـ من بيده الأمر. إنه الخازن يا مولاي.

ـ زُجّ ذلك اللص الحقير في السجن، ومُرْ صاحب الشرطة بجلده مئة جلدة، حتى ننظر في أمره.

ـ يا مولاي! أظن أنك قد نسيت أن الخازن هو ابن الصدر الأعظم وزير السلطان.

ـ آه.. يا لغفلتي! إن عِظَم المصيبة قد أنساني هذا الأمر. أخزاه اللّٰه وقبّح وجهه. لقد أوقعني بين شرّين، فإن أنا عاقبته جررت عليّ غضب الوزير، وإن غضضت طرفي عنه جلبت التهمة لنفسي، وضاعت هيبتي أمام السلطان والناس.

ـ لا تغتمّ يا مولاي، فلكل عَقْدٍ حلّ.

ـ أغثني بما يحفظ ماء وجهي، أغاثك اللّٰه.

ـ يا مولاي ! إن كان الخازن قد أكل الدجاج، هنيئاً مريئاً فلا بد من آخرَ يقع في السياج.

ـ و من الذي سيقع في السياج أيها المستشار؟

ـ إنـه معـاون الخـازن، فهـو رجـل مـن العامـة، رقيـق الجانـب، وسارق صغير الكيس، وسنلقي على عاتقه وِزْرَ سرقات الخازن.

ـ قاتله اللّه، استغفل الخازنَ الأمين، وانتهب الخزينة، أَمَا علم أن المطامع تُقطِّع أعناقَ الرجال؟

حذاء جلديّ

كان وجهه الأسمر المغضّن يتصبب عرقاً، وهو يجهد في جرّ عربته، في حين كانت الشمس تلقي حبال أشعتها اللاذعة في يوم صيفي قائظ، فوقف تحت مظلة متجر الأحذية يستظلّ بها، وأخرج منديله القماشي، وأخذ يمسح حبّات العرق التي تقطر من لَحْيَيْه، فالتفت إليه صاحبُ المتجر من خلف الزجاج، وصعّد النظر فيه رافعاً حاجبيه، متعجباً مما يراه، ثم قال لابنه:

_ أظن أن أعضاء مجلس الشعب قد صدقوا في وعودهم بعد جلوسهم على الكراسي.

_ أيةُ وعود تلك؟

_ وعودهم بأن يجعلوا حياة هذا الشعب الكادح أحسن حالاً.

_ وما أدراك بصدق وعودهم؟

_ انظر إلى أبي عدنان، لقد كان ينتعل حذاء مطّاطياً مشقّقاً، لا يخلعه في صيف أو شتاء، أما اليوم فينتعل حذاء جلدياً ليس بمقدور رجل فقير شراؤه.

ـ قد لا يصحّ أن تقيس صِدقَ المنتخَبين بأحذية المنتخِبين؟

ـ إذا صار بمقدور فقير مثل أبي عدنان أن يشتري حذاء جلدياً من الطراز الأول فقد أصبح ميسور الحال، وهذا يدلّ على أن المنتخَبين قد وفوا بوعودهم، وسأثبت لك صحة رأيي حين آتيك بالخبر اليقين.

ومضى صاحبُ المتجر إلى أبي عدنان وحيّاه مبتسماً، ووضع في عربته كيس القمامة وقال:

ـ أرى أن أحوالك قد تحسّنت يا أبا عدنان.

ـ الحمد لله على كل شيء، ولكن أحوالنا ما زالت كما تعرفها، تمشي إلى الوراء.

ـ لا تجحد النعمة يا أبا عدنان، فإنها قد ظهرت عليك.

ـ سامحك الله، أية نعمة أجحد؟

ـ يا أبا عدنان! أنت تنتعل حذاء جلدياً لا يشتريه إلا الأغنياء، وتدّعي أنك لم تصبح ميسور الحال.

وضـع أبـو عـدنان المكنـسة مـن يديـه، ووقـف قبالـة صـاحب المتجر، وقال مشيراً إلى حذائه:

ـ هذا الحذاء جلدي؟ آه.. من هذا الحظ العاثر.

ونظـر صـاحب المتجـر إلى قـدميّ أبـي عـدنان، فاعترتـه الدهـشةُ حين رآه ينتعل فردة حذائه المطاطيّ المشقّق وقال له:

ـ أين فردة الحذاء الجلدي؟ هل أضعتها يا أبا عدنان؟

ـ أنا لم أضيّعها ولكني عثرت على هذه الفردة وبحثت طويلاً عن الفردة الثانية فلم أجدها.

الجسر

كـان الـوزير يقـرأ مـا كُتـب في الرِّقـاع مـن مظـالم الرعيـة في حضرة الوالي، وفضّ الوزيرُ الرقعةَ الأخيرة، وقرأ ما فيها، ثم أعلم الوالي بفحواها:

ـ يـا مـولاي، إن النـاس يـشكون إلـيكم تـصدُّعَ الجـسر الـذي بـات سـقوطه وشـيكاً، ولـيس هنـاك جـسر غـيره يعبرونـه إلى سـوق المدينة، فهلاّ أمرتم بترميمه قبل أن تحلّ الكارثة يا مولاي.

وفتح الوالي فمه على مصراعيه يتثاءب مغمضاً عينيه، ثم أخرج الكلمات من بين شفتيه مُكرهاً:

ـ دَعْ عنك أوهام العامة، فإن الجسر ما يزال متماسكاً.

ـ ولكن يا مولاي، إن الجسر قد مضى على بنائه زمنٌ طويل، والناس يخشون سقوطه، وهم يمرّون فوقه.

ـ حسناً أيها الـوزير، سـيعلم هـؤلاء أننـا نُعنـى بـشؤون رعيتنـا ونصغي إلى شكواها، ولا نغضّ بصرَنا عمّا يقضّ مضجعها. أرسِل المنادي ليبلغ النـاس أمْرنـا بـالمرور فـوق الجـسر فـرادى كـي نخفّف

الـوطء فوقـه، ونزيـل الخـشية مـن قلـوبهم، وإن أحـدٌ عـصى أمرنـا هذا، فسيلقى منا عقاباً لا يرأف بأحد.

كظم الوزيرُ غيظه وهو ينـصت إلى تـدبير واليـه الأحمـق، وقـال في نفسه:

_ أخزاك اللّه وأخزى من ولاّك، إن أحكامك كخبط عشواء. أعان اللّه هذه الرعية التي نكبتها سياسةُ ولاتها.

ثم رفع صوته، وقال للوالي:

_ يا مولاي إن ترميم الجسر آمنُ للنـاس وأنفـع، فهـو يسهّل لهم قضاء حوائجهم.

_ سننظر في هذا الأمر فيما بعد، والآن نفِّذ ما أمرتك به.

وفي يوم بارد خرج فـلاح فقير مـن بيتـه، يجـرّ حمـاراً يحمـل علـى ظهـره خُرجـاً، قـد مـلأه زبيبـاً، ليبيعـه في سـوق المدينـة. وحـين كـان يمشي زلقت قدمه، فوقع على الوحل مستلقياً على ظهره، وأقبل إليه بعض المارّة، يعينونـه علـى النهـوض، وحـين هـمّ بمتابعـة السـير، قال له أحدهم:

_ ألا تذهب إلى بيتك لتبدّل ثيابك، إن البرد سينخر عظامك.

_ لا داعـي لـذلك، فـلا راحـة لـشقي في هـذه الحيـاة، وإن بـذل قصاراه لبلوغها.

ومضى الفلاح في طريقه، تغوص قدماه في الأوحـال حتـى وصـل إلى الجسر. وهناك وقـف ينتظـر، وأسـنانه تـصطكّ مـن شـدة الـبرد، فرآه أحد الواقفين ملطّخاً بالوحل، فأشفق عليه ودنا منه قائلاً:

_ إنك تَعِب مجهد، فاعبر الجسر قبلي.

واسـتبـشر بـه الفـلاح، وسـاق حمـاره ليعـبر الجـسر أولاً، فمـضى الحمـار يمـشي الهـوينى حتـى إذا وصـل إلى منتـصفه، توقـف عـن المشي، فأخذ الفلاح يصيح بـه ويرميـه بالحـصى، فـلا يتزحـزح عـن موضـعه. وبـدأ النـاس يتـأفّفون مـن الانتظـار، والـريح البـاردة تلـسع وجوههم، فلم يجد الفـلاح مناصاً من الذهـاب إلى حماره ليحثّه على السير وهو يردّد:

_ لا راحة لشقي في هذه الحيـاة، لا راحـة لـشقي، لعـن اللّه هـذا الحمار الحَرون ولعن صاحبه.

ولم يكـد يـصل إلى حمـاره، حتـى بـدأ الجـسر يتهـدّم، فعقـل الخوفُ رجليه، ولم يدرِ ما يفعل، فصاح الناسُ به ليرمـي بنفـسه إلى

النهر، فقفز وقلبه يرقص من الهلع، وأخذ يجهد في السباحة حتى وصل إلى الضفة، حيث رأى أقداماً تنتظره. وحين رفع بصرَه شاهد قائد الشرطة ورجاله واقفين، فانتشلوه من الماء، وساقوه إلى الوالي، وهو يلطم وجهه، ويندب حظّه:

ـ لو كنت سأصيب خيراً من عبور الجسر، لما أذن لي ذلك الرجل بالعبور قبله. لقد قلت لزوجتي إني أتطيّر من هذا اليوم، فنعتتني بخفة العقل. يا لسوء حظي الذي سيقودني إلى المهالك.

ودخل الفلاح على الوالي، تصطكّ ركبتاه، ويرتعش جسده خوفاً وبرداً، فقال له الوالي:

ـ أنت ذاك الفلاح الذي جرؤ على عصيان أوامرنا، فسقط الجسر، وتبعثرت حجارته في قاع النهر.

ـ يا مولاي، أنا لم أقارف ذنباً، إنه المطر الغزير الذي زعزع حجارة الجسر، ثم إن حماري حَرِن فوقه، فذهبت لأسوقه إلى الجهة الأخرى، وعندها سقط الجسر.

ـ هاأنـت ذا تقـرّ بأنـك عـصيت أمرنـا ، ولـو لم يمـت حمـارك الحرون لكنّا أنزلنا به العقاب. قيّدوه وارموه في السجن حتى يصبح من ذوي السمع والطاعة.

ـ رحمـاك يـا مـولاي، فـإن أولادي سـيموتون جوعـاً، فليس لهم مُعيل سواي.

ـ كفـاك توسّـلاً أيهـا الأخـرق، فـإن الرحمـة لا تُعطـى لأمثالـك ممن يخرّبون أملاك ولايتنا العامرة، ويجعلون الناس عرضة للهلاك.

الهديّة

بعد سنوات طويلة من الزواج الذي قرّ به عيناً، انتقلت رفيقةُ دربه إلى أحضان أبينا إبراهيم، فودّعها كسير النفس، وودّع معها أياماً هانئة، لتعانق عمرَه أيامٌ تملأ قلبَه مرارةً وحسرةً سترافقانه، وهو وحيد في منزله الوسيع الذي بدا موحشاً كالقبر، لا يسمع فيه صوتاً مؤانساً.

ومع مرور الأيام صار يجلس على كرسي الخيزران أمام بيته في حارته العتيقة حاملاً بين أصابعه لفافة تبغ يمتصّ دخانها، ثم يمجّه ببطء، وهو يغضي مقلتيه، وكأنه يُخرج مع الدخان المتصاعد ما في قلبه من الهموم والحسرات. فإذا جالستُه بدأ يشكو إليّ سوء حاله، وينحو باللائمة على أولاده:

_ لقد رماني الزمانُ بسهمٍ يعسر عليّ ردُّه، رماني بأبناءٍ نسوا والدهم الذي شاخ وأحوجته الأيامُ إلى التوكّؤ على العصا.

_ لا تكثر اللوم والغضب، فما أكثر تكاليف الحياة التي تشغلهم عنك.

_أعلمُ باللقمة من غصَّ بها ، أنا أدرى بأولادي، فلا تختلق لهم الأعذارَ، لقد تشاغلوا عن والدهم بعد أن صار كالمتاع الذي لا خير فيه ،هذا هو الدهر، يومٌ لك ويومٌ عليك.

ثم تقوده الشكوى إلى التحسّر على أيامٍ سوالف لن يجود الزمانُ بمثلها ، قضاها برفقة زوجته الطيبة التي كانت تؤنس وحدته، وتسليه عن كربته.

وكنت كلما سمعت أحاديثه تلك، أرثي لحاله، وأسأل نفسي:

_ هل سينفضّ عني أولادي حين تدركني الشيخوخةُ، وأمسي سنداناً لمطرقة الزمان ؟

وعندما وضعت زوجتي مولودها الأول، استوقفني وأنا أمرّ قبالته ليقول لي مهنّئاً :

_ باركه اللّه، وجعله ولداً صالحاً يبرّ والديه، سآتي يوماً لتهنئتكم.

وبعد أيام جاء لزيارتي، وهو يحمل بين يديه سلةً صغيرة أثارت في نفسي الدهشةَ حين أعطاني إياها قائلاً :

_ هذه هديتي إليك .

فقلت في سرّي :

ـ ألم يجد خيراً من هذه الهدية ؟

ـ لا تظن أني قد خرفت، فأنت لن تجد خيراً من هذا الصغير، إنه لطيف المعشر، و سيبقى محباً وفيّاً لك ما حييت، أمّا الأولاد فلا خير يُرجى منهم، ولن أُطيل عليك الكلام، فكما ترى، الحال أفصح من اللسان، ولقد صدق من قال: رَبِّ كلباً و لا تُربِّ ولداً.

ـ ولكن ما كل الأولاد في الأخلاق سواء.

ـ صدقت، لكنك لا تدري على أية حال ستكون سيرة أولادك؟

فقلت في نفسي:

ـ قد تصحّ عليّ مقولةُ هذا العجوز الذي خَبر الحياة، ويأتي يومٌ أكدر، أغبر أتمنى فيه لو ربّيت كلباً ولم أُربِّ ولداً.

فقبلت هديته شاكراً له نصحه ومودته.

الزعماء والعظمة

كلبان جائعان يتزعّمان نفراً من الكلاب، التقيا عند عظمة كبيرة يعلوها الشحم وتفوح منها رائحةُ اللحم، فاشرأبّت إليها الأعناقُ، والأفواه يسيل روالها، وأخذ كل زعيم يهرّ، وينبح خصمَه لعله يبتعد عن العظمة، فلم تتزحزح الأقدام عن مواطئها، وعِيلَ صبرُ الزعيمين، فدعا كلٌ منهما عصبته إلى القتال من أجل الظفر بتلك الغنيمة الشهية، فقطّب أحدهما وجهه، وصاح بأصحابه:

_ إلى القتال يا رفاق، فلن نترك هذه العظمة لقمة سائغة في أفواه تلك الكلاب القذرة.

فكشّر الثاني عن أنيابه ناظراً إلى عصبته وقال:

_ هذه الكلاب الضّالة تريد الاستئثار بالعظمة، فهل ندعها تبلغ مرادها؟

فهاجت الكلاب، وتواثبت، وتنحّى الزعيمان عن العراك، يرقبان الكلاب وهي تتهارش، والنباح يعلو، والتراب يذرو فوق الرؤوس.

ولم تـزل الكـلاب في ساح الـوغى تعـضّ، وتنـشب مخالبهـا، ويدمي بعضها بعضاً حتى كلّت الأنيابُ والمخالب، وخرّت الكلاب علـى الأرض معفّـرة بـالتراب، ووضـعت الحـربُ أوزارهـا، فهـرول الزعيمان إلى إصلاح ذات البين:

_ أرى أن نكفّ عن إراقة دماء كلابنا رحمةً بها.

_ أصـبتَ أيهـا الـزعيم، ينبغـي أن نـرأف بهـذه الكـلاب المسكينة.

_ بما أنك توافقني الرأي فهلمّ نقطع دابرَ الخصومة بيننا.

_ حسناً، فلنقتسم هـذه العظمـة مناصفةً، فـإنّ الطمـع مجلبـة للخصومة.

وحين نالت البطونُ الخاوية مرامَها، ركب كلُ زعيمٍ طريقَه راضياً بعظمته يحملها بين فكّيه تاركاً مناصريه يخرّون على الأرض بين صرعى وجرحى.

العار

بينما الملك جالس على عرشه، وفد عليه رسولٌ وبشّره بانتصار جيشه على ذاك المتمرد الطامع بملكه، فسُرّ الملك بهذه البشرى سروراً عظيماً، وحمد الله الذي أظفره بعدوه، ثم ما لبث أن دخل قائد الحرس وقال له:

ـ سيدي الملك، إن الناس يقفون ببابكم طالبين الخبزَ لأولادهم الجياع، فبِمَ تأمرون يا مولاي ؟

ـ انصرف أنت، وسنتدبر نحن أمر رعيتنا، فإنّ لها علينا حقاً.

ثم قام الملك تعتريه نشوةُ الفرح واتّجه إلى شرفة قصره يتبعه وزيره، وأجال بصرَه في المكان، فلم يرَ إلا جمعاً قليلاً من الناس يستر أجسادهم ما بَليَ من الثياب، فبُهِت مما رأى والتفت إلى وزيره سائلاً إياه:

ـ أهؤلاء هم الجياع في مملكتنا؟

ـ أجل يا مولاي.

ـ والآخرون ألا يشكون الجوع ؟

ـ الآخرون في الدار الآخرة يا مولاي. فليرحمهم اللّه.

ـ في الدار الآخرة؟ أتقول الحقَّ أيها الوزير؟

ـ أجل يا مولاي، وأنتم تعلمون أن البلاد أمحلت وأن المجاعة تهلك الناس، وليس بخافٍ على جلالتكم أنّ ما لدينا من المال لم يكن يفي بأعباء الحرب المستعرة منذ سنين وسدّ رمق الجياع. وهؤلاء الواقفون أمام جلالتكم قد نجوا برؤوسهم من المجاعة والحرب.

ـ رعيّتي تقضي جوعاً!؟ هذه واللّه قاصمة الظهر.

ـ هوّن عليك يا مولاي، إنها أقدار اللّه، ومن قُدّر عليه الموت جوعاً فليس بمستطاعه الفرار من قدره.

ـ إنك لا تَعِي عِظَم البلّية التي ألّمت بنا أيها الوزير.

ودخل الملك قاعة الحكم ليجلس على عرشه واضعاً رأسه بين كفيه وعيناه تهملان:

ـ شدّ اللّهُ عضدَكم يا مولاي، وأنزل عليكم غيث الرحمة والسلوان .

ـ كُفَّ عن تعزيتي أيها الوزير، فإن كلمات العزاء كلها لن تمنح نفسي السكينة، وإن بقيت جالساً على عرشي هذا فلن تقرّ عيني، ولقد هممت بالنزول عن مُلكي منذ اللحظة حتى لا يلحق بي العار.

ـ عليكم بالصبر يا مولاي، فهذا عرش آبائكم الذي حاربتم لأجله، ونزولكم عنه سيقضّ مضجعهم.

ـ من أين لي بالصبر أيها الوزير؟ إن قلبي يكاد ينفطر حزناً وحسرة.

ـ يا مولاي لا تدعوا حزنكم على هؤلاء الموتى يغلب عليكم وينال من رجاحة عقلكم.

ـ ما هذا الهراء الذي تتفوّه به؟ هل دهاك الحمقُ وأنت الوزير الحصيف؟

ـ اعذرني يا مولاي، إن قلت شيئاً جعلني أبدو أحمق أمام جلالتكم.

_ قد عذرناك على ما قلتَ، فأنت لم تدرك بعدُ أني سأصبح هُزأة بين الملوك حين يعلمون أني صِرت ملكاً بلا شعبٍ يحكمه. فهل دريت الآن ما جعلك أحمق أيها الوزير اللبيب؟

اللعنة

وقف على شاطئ البحر حيث كانت الأنسام البحرية تهدهد شعره الأسود الطويل، وشعاع الشمس يلفح وجهه الأسمر، وهو يتأمل السفن التي تشقّ عباب البحر بعينين طافحتين بالأسى واليأس ويقول في نفسه:

_ في مثل هذا اليوم المشؤوم ألقت سفنُك مراسيها، ووطئت قدماك القذرتان ثرى هذه الأرض المباركة لتحمل في وفاضك الموت والدمار.

ملعونٌ أنت أيها البحّار الطامع الذي صنع بيديه الآثمتين اللعنةَ التي أبادت شعبي بالحديد والنار، وهو كفريسة تدمى بين مخالب هؤلاء البيض الأجلاف الذين سرقوا وطن أسلافي، وجعلوه مغارة للصوص والقتلة.

آه.. من تلك الأقدار الغاشمة التي ساقتك إلى هذه الشطآن في يومٍ جرَّ على البشرية لعنةً ستُبيد شعوب الأرض كما أبادت شعبي.

ومشى الشاب صوب البحر وهو يردّد: ملعون أنت يا كولومبس..

وخلع تعويذة ألبسته إياها جدتُه لتقيه شرّ اللعنات، ورمى بها لتستقرّ في قعر البحر، ثم نظر إلى الأفق البعيد وصاح:

_ أيها البحر! يا من حملت إلينا اللعنة، هل ستحمل الخلاص يوماً؟

مذكّرات

ولدتُ ذات يوم لأُلبِّي رغبة والديَّ، وأُدخِل الحبورَ إلى قلبيهما ، فقالوا : إنّ اللّه خلقني ونفخ فيّ نسمة الحياة،

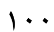
وعشتُ سنوات لا أعرف عددها لتُسيِّرني الحياةُ في دروب الخيبة والمرارة في زمانٍ توشّح بالسواد منذ بدء الخليقة وإلى يوم انقضائها ،

فقالوا إن اللّه يمتحن خائفيه،

ومتُّ في يومٍ ما لأخضع لشريعة الموت المسلّطة على أعناق البشر،

فقالوا : إن اللّه قضى وقدّر،

وطواني الموتُ في غياهب النسيان، وما زال الناس يقولون إن اللّه خلق وامتحن وقضى.



الفهرس